كوكب الأرض.. إلى أين؟

بقلم :

د. نادر رياض

العد التنازلى لوجود الانسان على هذا الكوكب بدأ مع انقراض اول كائن عليه.. وذلك باعتبار غياب اى كائن مهما صغر حجمه او كبر يخل بسلسلة من التوازنات تحتاجها البيئة لكى تبقى سليمة وقوية.. فاذا كان الامر كذلك فلا بد ان هذا العد التنازلى لبقاء الانسان على الارض قد وصل اليوم مداه بل وتعداه وقد يفاجئنا احد الباحثين يوماً بأن احد اسباب انقراض الهنود الحمر يرجع لاسرافهم المطلق فى قتل البقر الوحشى حيث كانوا يقودون قطعانه لتسقط من اعالى الجبال كوسيلة سهلة للصيد الامر الذى اخل بتوازن البيئة.

ويبقى شاهداً على عقوق الانسان تجاه امه الطبيعة ما يسببه الانسان من كوارث كإبادة غيره من الكائنات، واقتلاع الغابات وافنائها وتلويث مصادر المياه، وظهور مرض جنون البقر وانفلونزا الطيور نتيجة لعبث الانسان بالطبيعة، والقضاء على الحياة داخل الانهار بل امتد ذلك لتلوث الطعام والهواء حتى طبقات الجو العليا.

اما نحن فى مصر فنقع فى مدخل القارة الافريقية عند نهاية رحلة نهر النيل العظيم، تلك الرحلة التى امتدت لآلاف الأميال يعبر خلالها عشرات الدول فيصل الينا وقد اصابه ما اصابه من الاعياء والاجهاد بفعل الطبيعة والبشر.. ومصر التى ظلت على مر العصور هبة النيل، كما وصفها هيرودوت قديماً، سعت لاصلاح هذا النهر العظيم مما اصابه فى نطاق ما تملك من امكانيات، فأقامت سد اسوان والسد العالى من بعده ليكون اكبر بحيرة صناعية عرفها العالم حفاظاً على الماء من الاهدار، كما تتبنى مصر على مراحل مشروعاً لغسل مجرى نهر النيل بامتداده داخل اراضيها ولكن هل يكفى هذا الاصلاح ما افسده الزمن والانسان ايضاً؟

وان كان مستقبل دول العالم الثالث هو ان تتحول الى دول ذات اسهامات فعالة فى الحركة الاقتصادية والصناعية العالمية فان هذا يعنى ببساطة ان تصبح دولاً منتجة للطاقة والتكنولوجيا ووسائل الانتاج بعد ان كانت مستهلكة لها، اى ان التحول للانتاج بعد مرحلة الاستهلاك من جانب دول العالم الثالث يعد عملية تتم لصالح الحل العالمى قبل ان تكون لصالح الحل المحلى لتلك الدول ومن ثم فإن عملية التحول هذه والتى يجب ان تتم فى اطار الحفاظ على البيئة هى حل له تكلفته الباهظة، اذ ان التحول العشوائى من شأنه ان يؤدى الى كوارث بيئية يصعب احتواؤها بعد ذلك.

وعودة لمصر نجد ان الصناعة لديها قد استجابت بصورة جيدة للاتجاهات الآخذة بأسباب الجودة الشاملة وتبنى تشجيع الصناعة المصرية على التأهيل واستيفاء مجموعة مواصفات ايزو ٩٠٠٠/١٤٠٠٠ وهو اتجاه آخذ فى النمو بصورة مؤثرة، ونشاط حماية البيئة الذى بدأ اعماله منذ الستينيات اثمر عن انشاء جهاز حماية البيئة التابع لمجلس الوزراء وتوج بوزارة الدولة لشئون البيئة والذى كان مردودها المؤثر فى العشرة الاعوام الماضية انتشار الجمعيات الأهلية لحماية البيئة فى مختلف المجالات.

إلا ان هذه الكيانات على تشعبها واتساع رقعتها لا تشكل بوضعها الحالى الشرط اللازم والكافى لحماية البيئة وتوجيهها فى اتجاه صاعد نحو بيئة نظيفة فى زمن قابل للتحديد وذلك بسبب غياب الآلية والامكانات القادرة على الالزام مع توفير الادوات اللازمة للحد من التلوث فى خط متوازن فالأمر ليس بخاف على احد فى ان اولويات قضية الانتاج تتركز فى خفض تكلفة الانتاج والحفاظ على الاسواق، والاخلال بهذه المعادلة سواء برفع تكلفة الانتاج او انكماش حجم الاسواق يهدد قضية الصناعة من اساسها مما يخرج المشكلة من حيز الصناعة الاقليمية ويجعل منها قضية دولية.

ويبقى اخيراً اننا جميعاً مسئولون عن جودة الحياة على هذه الارض دون تفرقة اذ ان كل ما يمكن ان يحقق من كسب لن يجد ما يشتريه اذا فسدت الحياة على هذه الارض.. نحن جميعاً نحتاج الى الطبيعة بينما الطبيعة لا تحتاج الى احد منا.

جريدة الأخبار ٢٠٠٥/١١/٢٥

كوكـــــب الأرض... الـى أيــن؟

ان العد التنازلى لوجود الانسان على هذا الكوكب قد بدأ بالفعل مع انقراض اول كائن عليه.. وذلك باعتبار ان غياب أى كائن مهما صغرحجمه او كبر يخل بسلسلة من التوازنات تحتاجها البيئة لكى تبقى سليمة وقوية. فاذا كان الأمر كذلك فلابد ان هذا العد التنازلى لبقاء الانسان على الارض قد وصل اليوم مداه بل تعداه، وقد يفاجئنا احد الباحثين يوما بأن أحد أسباب انقراض الهنود الحمر يرجع لاسرافهم المطلق فى قتل البقر الوحشى حيث كانوا يقودون قطعانه لتسقط من أعالى الجبال كوسيلة سهلة للصيد الأمر الذى أخل بتوازن الطبيعة..

منذ ذلك الحين فإن الامر لم يقتصر عند هذا الحد بل تعداه الى ان أصبحت أفيال اليوم على وشك الفناء بسبب أنيابها بينما قضى على الماموث ابو الافيال لاسباب لاتتعلق بالانياب وان كان بالقطع بفعل الانسان، وبهذا تعددت الاسباب والموت واحد.

ولو عدنا لمرحلة بدء الخليقة، يوم أسلمتنا أمنا حواء لأمنا الطبيعة لترعانا من بعدها، فقد كانت لنا نعم الام بدليل ان طبيعة الانسان الهشة التى لاتسمح لابن الانسان الوليد ان يحيا بذاته اذ عليه ان يعتمد على غيره لسنوات فى توفير اسباب الحياة وإلا اهلك، على عكس كافة الكائنات الاخرى من الحيوانات والاسماك والحشرات التى تستطيع الاعتماد على نفسها بعد ساعات من وجودها.

ويبقى شاهدا على عقوق الانسان تجاه امه الطبيعة ما يسببه الانسان من كوارث كإبادة غيره من الكائنات.

اما نحن فى مصر نقع فى مدخل القارة الافريقية عند نهاية رحلة نهر النيل العظيم، تلك الرحلة التى امتدت لآلاف الأميال يعبر خلالها عشرات الدول فيصل الينا وقد أصابه ما أصابه من الاعياء والاجهاد بفعل الطبيعة والبشر. ومصر التى ظلت على مر العصور هبة النيل، كما وصفها هيرودوت قديما، سعت لاصلاح هذا النهر العظيم مما اصابه فى نطاق ماتملك من امكانيات، فأقامت سد أسوان والسد العالى من بعده ليكون أكبر بحيرة صناعية عرفها العالم حفاظا على الماء من الاهدار.

وان كان مستقبل دول العالم الثالث هو ان تتحول الى دول ذات اسهامات فعالة فى الحركة الاقتصادية والصناعية العالمية فان هذا يعنى ببساطة ان تصبح دولا منتجة للطاقة والتكنولوجيا ووسائل الانتاج بعد ان كانت مستهلكة لها، اى ان التحول للانتاج بعد مرحلة الاستهلاك من جانب دول العالم الثالث يعد عملية تتم لصالح الحل العالمى قبل ان تكون لصالح الحل المحلى لتلك الدول ومن ثم فإن تكلفة عملية التحول هذه والتى يجب ان تتم فى اطار الحفاظ على البيئة هو حل له تكلفته الباهظة اذ ان التحول العشوائى من شأنه ان يؤدى الى كوارث بيئية يصعب احتواؤها بعد ذلك.

ان نشاط حماية البيئة الذى بدأ أعماله منذ الستينات أثمر عن انشاء جهاز حماية البيئة التابع لمجلس الوزراء والذى كان مردوده المؤثر فى العشرة الاعوام الماضية انتشار الجمعيات الاهلية لحماية البيئة فى مختلف المجالات الصناعية والزراعية والمهنية وشمل ايضا المجارى الملاحية والنهرية والبحرية والمحميات الطبيعية.

إلا أن هذه الكيانات على تشعبها واتساع رقعتها لاتشكل بوضعها الحالى الشرط اللازم والكافى لحماية البيئة وتوجيهها فى اتجاه صاعد نحو بيئة نظيفة فى زمن قابل للتحديد وذلك بسبب غياب الآلية القادرة على الالزام مع توفير الادوات اللازمة للحد من التلوث.

وأخيرا أود التأكيد على بعض النقاط:

- إننا جميعا مسؤلون عن جودة الحياة على هذه الأرض دون تفرقة، إذ أن كل مايمكن ان يحقق من كسب لن يجد مايشتريه إذا فسدت الحياة على هذه الأرض
- نحن جميعا نحتاج الى الطبيعة بينما الطبيعة لاتحتاج الى أحد منا.
- إن اختفاء الإنسان من على ظهر الارض سيكون فرصة للطبيعة لتسترد ما فقدته بفعل الإنسان قبل أن يظهر إنسان جديد بعد مئات الألوف من السنين ليعيد الكرة فى إفناء للكائنات وتدمير للطبيعة، لتكتمل بذلك دورة الحياة.. بل قل لتكتمل دورة الفناء.

دكتور مهندس نادر رياض

جريدة الأخبار ١ / ١٢ / ١٩٩٦

الأخبار